رأى فى رواية العيب ليوسف إدريس

رواية العيب ، رواية قصيرة ، ولكنها – على قصرها – لا تخلو من الخصوبة التى تتمثل فى العمل الأدبى الجاد. وقد سبق أن درستها فى كتابى «يوسف إدريس والفن القصصى[١] ، ولكنى عندما طالعتها هذه الأيام كان لى فيها رأى آخر ، لقد وضح لى أنها رواية دراميّة تعتمد على الصراع الذى تتعدد أطرافه ، وتتعدّد موضوعاته ، فهو مثلا صراع بين القيم القديمة والقيم الحديثة ، وهو صراع بين الخير والشر ، الشر الذى يجسده الفساد بصوره المختلفة ، والخير الذى يمثل التمسك بالقيم الشريفة النبيلة . وأطراف الصراع متعددون – كما قلنا – ، وإن كان ذلك الصراع يقوم أساسا بين سناء الموظفة فى مكتب التراخيص ، وبين زميلها محمد الجندى الذى يعمل بالمكتب نفسه ، فهناك أطراف أخرى تشارك فى هذا الصراع ، وإن ظلت تبدو وكأنها فى خدمته ، أو بعبارة أخرى كأنها أدوات لبلوغ ذلك الصراع ذروته مرورا بالمراحل المختلفة لذلك الصراع . فالباشكاتب رئيس مكتب التراخيص ، ورئيسها فى العمل وغيره من الموظفين بالمكتب تربطهم بالصراع الذى يدور بين «الجندى» و «سناء» ، رابطة قويّة ولاشك ، ولكنها لا تمثل محور الصراع فى الرواية . فالجندى هو الذى يتقاضى الرشوة من عملاء المكتب ، والذى يعود جزء ضئيل منها على زملائه فى المكتب وعلى رئيس المكتب (الباشكاتب) بل إن الجزء الأعظم من الرشوة يصل إلى موظفين كبار فى الوزارة التى يتبعها المكتب ، ولكن زملاء «سناء» لا يهمهم من أمر الصراع الدائر بينها وبين الجندى إلا أن تمضى أمور الرشوة فى طريقها المعتاد بسلام .

ويقوم الصراع بين سناء والجندى على محورين من جانب الأخير ، الأول الظفر بشىء كأنثى أو امرأة ، كما يهدف إلى ذلك أى منحرف أخلاقيا ، والثانى : دفعها دفعا إلى الارتشاء الذى يمارسه هو وزملاؤه ، أما من جانب «سناء» فيتمثل الصراع فى استمساكها بمبادئ الأخلاق واعتبارها الرشوة سرقة ، وعملا لا يليق بإنسان شريف مهما كانت الظروف والأسباب . وقد أدى الصراع بينها وبين الجندى إلى حدوث تغير لهما معا ، وهو تغير يضاد للتغير الذى يصاب به أحدهما ، فسناء تتحول من النزاهة والشرف إلى

---

(١) دكتور عبد الحميد القط – يوسف إدريس والفن القصصى. دار المعارف القاهرة، ١٩٧٩ ص ٣٣ ، ٤٤ ، ٨٧ – ٩٢ ، ١٢٢ ١٢٣ .

الرشوة فالانحلال الأخلاقى المتمثل فى عرضها لنفسها على الجندى عرضا رخيصا ، انظر موقفها من الرشوة وهى تخاطب الباشكاتب رئيسها فى العمل[١] عندما يعرض عليها مشاركتهم فى الرشوة :

– يعنى انتو فى سكتكم وأنا فى سكتى . أنا ما ليش دعوة بيكم . انتم كبار ومسئولين عن نفسكم قدام ربنا وقدام الناس .

– وليه ماتكونيش ويانا ؟

– أنا والله لما ينقطع دراعى»[٢] .

وقد تجلى تمسكها بالقيم عندما عرض عليها الجندى أن تلقاه فى أحد الأماكن ليعبر لها عن حبه لها ، إذ تصده فى كبرياء وتماسك ، ودون تردد قائلة له :

« .. اسمع يا محمد أفندى! إنت يا إمّا عاوز تودى نفسك فى داهية . وأنا بانذرك أهه، دى آخر مرّة اسمح لك فيها إنك تفكّر فى بالشكل ده ، واعمل حسابك المسألة دى مش بالعافية . وانت لما تتسخط قدامى قرد ، والا تموت نفسك مليون مرّة ، ولا حايهمنى . أنا لا حبيتك ، ولا باحبك ولا باقبلك، وإذا كنت جدع صحيح نفد كلامك وانتحر، وده آخر كلام لك»[٣] .

فى حين يتحول الجندى من الانحلال الأخلاقى إلى عشق حقيقى لسناء . وكراهية للرشوة ، واتجاه نحو الشرف والنزاهة وهو تحول يظهر فى مسلكه وفى تصرفاته تجاهها ، ويتضح هذا أيضا من موقفه من «سناء» بعد أن ارتشت ، إذ كان قد اتخذها مثلا أعلى ، وقدوة يقتدى بها ، وتحدى عبادة بك أحد عملاء المكتب ، والمتخصص فى شراء ذمم الموظفين وأيقاعهم فى براثن الرشوة ، أن يتمكن من رشوتها[٤] .

أما الصراع بين سناء وبين زملائها الآخرين فيأخذ أسلوبا آخر ليس له إلا هدف واحد ، وهو أن تتركهم وشأنهم فيما يتقاضونه من الرشوة ، وهم يعتقدون أن الضمان

---

(١) العيب ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) نفسه ص ٦٩ .

(٣) نفسه ص ١٢٣ ، ١٢٤

(٤) نفسه ص ١٤٥ وعبادة بك أحد أصحاب المصالح لدى مكتب التراخيص ، الذين يتخذون كافة الأساليب غير الشريفة لكى يبيع الموظفون ضمائرهم ويرتشون ، فيحققون له ما يريد .

الوحيد لذلك هو ارتشاؤها بالفعل ، وقد دبروا لها المناسبة التى تتيح لها الارتشاء على يد المتخصص فى شراء الذمم عبادة بك أحد عملاء المكتب الذى تعمل به ، والذى كان من هواة إفساد الضمائر والأخلاق لدى الموظفين والموظفات ، حتى تحول ذلك إلى هواية له ، وإن كانت الرشوه لديه دافعها الأساسى الحصول على أرباح غير مشروعة على حساب الدولة . وما أن ارتشت سناء حتى زال الحاجز الصفيق الذى كان يفصل بينها وبين زملائها ويصور الكاتب ذلك بقوله : «والغريب أنها بعد برهة ، وجدت نفسها غير ساخطة ، أكثر من هذا سعيدة بهذا التسرب ، لكأن حائطا سميكا كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباشكاتب والجندى ، قد تهدّم من أساسه ، ولم يسخر منها أحد ، ولم يحاول أحد أن يعايرها ، بالعكس أقبل الجميع عليها ، وكأنها نجحت فى امتحان ، وانتقلت إلى خانتهم ، أو لكأنها الأخت المريضة التى عوفيت وشفيت، وانضمت إلى العائلة . التحفظ زال والحرص فى المعاملة اختفى والحجرة تحولت إلى مكان عذب خفيف الروح يغرى بالإقامة ويمحو الأشجان»[1] . لقد أقبلوا عليها وأقبلت عليهم. فالتحول فى نفوسهم لم يكن كبيرًا ، لأن الأزمة التى كانت بينهم وبين زميلتهم لم تكن عنيفة ، أما الأزمة الحقيقيّة فقد كانت بين الجندى وسناء .

أما الصراع فى القيم فيتمثل فى موقف المرأة من الرجل فى العمل ، وهو موقف غيّر مفهوم العفة وأعطاه معنى جديدًا فى نفس المرأة العاملة ، ويتضح هذا من موقف زميلة سناء فى أحد المكاتب الأخرى فى المصلحة الحكومية التى يعملان بها ، وتدعى بهيجة ، فقد فقد الرجل كل ما كان له من تأثير عليها . فالمؤلف يصور تجربتها ، وكيف أصبح الطموح إلى المنصب الأعلى همها الأول ، وفقد الرجل ما كان له من تأثير شديد عليها : «وفقد الرجل طعمه القارص الأول وبدأت تجد له فى نفسها مذاقا جديدًا لا يلذع ، ولا يجعل جسدها يقشعرّ ، ولا يصيبها بأى إحساس يمت إلى الجنس أو الجسد بصلة ..»[2] ثم يكشف عن التطور الذى أصابها فى مجال العمل . وفى هذا الإطار يفقد إحساس المرأة العاملة بالعيب معناه القديم عندها . أمّا سناء فكان نصيبها فى هذا الجانب موقفها من الجندى ، وهو موقف جنسىّ فى صميمه . فبعد نفورها الشديد واشمئزازها المتواصل منه ، تأخذ بالتدريج فى الميل إليه ، ويبدو ذلك الميل واضحا بعد ارتشائها . بل

---

(١) العيب ص ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ ولمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع انظر المصدر نفسه الصفحة نفسها .

قبل ارتشائها إذ تحول اشمئزازها منه إلى شيء آخر بعد حادث يوم الإجازة الذى كاد يودى بمستقبلها[١] ، إذ أحست بإحساس آخر تجاهه . يقول الكاتب : «وكل هذا شيء قد يستطيع العقل هضمه ، فهو ما حدث فى اليوم الثالث حين فوجئت سناء بمحمد الجندى – وقد خفّت فى الآونة الأخيرة نوبات هياجه وثوراته – ينظر لها نظرات باسمة لا تصدر على هيئة شعاعات مبتسمه ، وإنما كأنها تسيل من عينيه لتختلط صفراوتيها ولزاجتها بملامحه الشاحبة المفرطحة التكوين . نظرات ذكرتها بأيام العمل الأولى ، وبمحمد الجندى حين كان يتراءى لها **أثقل دم خلق الله** أجمعين ، وأكثرهم استثارة للاشمئزاز والغثيان ، ولكنها ، وهذا هو الغريب ، لم تجدها هذه المرة كذلك، لا لأن محمد الجندى كان قد تغيّر فى نظرها أو تبدّل ، لكن لأنها هى نفسها كانت قد تغيّرت . إلى أين وكيف ؟ لم تكن تدرى . كل ما تعرفه أنها لم تشمئز من نظرات محمد الجندى لها ، وربما هذا ما شجعه إلى أن يرفع اللوسيه بعد قليل ويبدأ يهمس لها من خلفه:

– ازيّك يا حلو . والنبى شفايفك دول مجنيننى .. إلخ»[٢] .

إن تفكير سناء فى محمد الجندى وتحول عاطفتها نحوه إنما يرجع حسبما يرى الكاتب ، إلى التحول الذى أصابها بعد يوم الإجازة المذكور . مما أدى بها إلى أخراج الناس من حياتها واللامبالاة بهم: « . . وهكذا ما كادت تنجح فى دفع هذا البلاء ، ويحتسب اليوم من إجازتها المرضية ، وتتنفس الصعداء ، حتى أدركت أنها فى خضم ما حدث نسيت اليوم المؤلم تماما وأصبحت أقل إحساسا لذكره ، بل الحق إنها أفاقت لتجد نوعا من عدم المبالاة قد أصبح يصبغ تفكيرها وآراءها وتصرفاتها ، وكانت اللحظة الصاعقة التى عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة منبوذة ، قد جعلها هى الأخرى تنبذ الناس فى تفكيرها وتصرفاتها . . لم يعد مهما أن تحظى برضائهم عنها ، وبين يوم وليلة ملأها الشعور بأنها لا تملك فى هذه الدنيا ، ولا يجب عليها أن تراعى سوى نفسها ، شعور لم يكن عميقا خافيا لقد ظهر حتى لزميلاتها وزملائها ، ولا حظوة ، واتخذوه مادة لتعليقاتهم»[٣] .

---

(١) انظر المصدر نفسه ص ١٠٦ كانت قد حصلت على إجازة بدون إذن رسمى وكادت تفصل من العمل لذلك ، ولولا أنها حصلت على إجازة مرضيه لربما فقدت وظيفتها .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

ويرتبط بهذا – كما قلنا – موقفها من الجندى الذى تغيّرت نظرتها إليه ، وإحساسها بأن عبارات الغزل التى يوجهها لها عبارات صادقة ، وظهرت فى شعوره بالخجل أمامها فى حين لم تعد هى تخجل، بل تنظر بعين لا تطرف[١] . لقد جاء التغير نتيجة لعوامل متشابكة هى كما قلنا الظروف المحيطة بها فى العمل وفى خارجه ، وهى ظروف دفعتها دفعا إلى هذا المسلك . بل دفعتها دفعا إلى أن تعرض نفسها على الجندى عرضا رخيصا وهو مأخذ سبق أن أخذناه على الكاتب[٢] وأخذته عليه كذلك الدكتورة لطيفة الزيات[٣] .ويرتبط بالصراع بين سناء والجندى صراع من جانب آخر، وهو المتمثل فى تصور الكاتب لثنائية الأخلاق أو السلوك عند الرجل العامل فى الوظيفة . فهو فاضل فى بيته، مرتش خارجه ، وذلك من وجهة نظر الكاتب راجع إلى طبيعة الرجل من ناحية ، وإلى خبرته الطويلة بالحياة والعمل من جانب آخر، وبخاصّة وأنّه مسئول عن أسرة يعولها ، ولابد أن يوفر لها حياة كريمة ، لا يفى بمطالبها راتبه الضئيل. ولعلّ الكاتب يعتقد أن المرأة لحداثة عهدها بالوظيفة ،وتحمل مسئولية رعاية الأسرة ، لا يمكنها أن تقبل الرشوة ، وتتقاضاها إلا ويتزلزل كيانها كله وتهتز قيمها جميعا ، وتنهار انهيارا كاملا ، وبخاصّة إذا كانت من النوع الذى تصوره سناء ، فهى مثالية ، قليلة الخبرة بالحياة ، حتى فى الأمور العاطفية ، أما الرجل فهو ذو خبرة طويلة فى مجال العمل ، ويعتبر المرأة متطفلة عليه، ولذا يقول الكاتب فى مطلع الرواية مصورا وقع دخول المرأة إلى عالم العمل ، عالم الرجال : «ثلاث مرات فى تاريخ المصلحة ازدحمت مثل هذا الازدحام. . يوم توفى سعد زغلول ، ونعاه الناعى . ويوم طرد الملك ، واليوم الذى عينت فيه سناء . ففى ذلك اليوم تم تعيين خمس من زميلاتها الناجحات فى المسابقة»[٤] ويقول : « . . المصلحة من يوم إنشائها والعاملون فيها رجال فى رجال ،الرجال هم الذين أنشأوها ووضعوا لها اللوائح والقوانين ..»[٥] ويقول كذلك : «ولم تكن استحالة التصور تحيزًا ضد المرأة ، ولكنها

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) انظر دكتور عبد الحميد القط . يوسف إدريس والفن القصصى . دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) انظر دكتورة لطيفة الزيات. مجلة أدب ونقد . «قراء فى رواية العيب» العدد ٣٤ . ديسمبر ١٩٨٧ ص ٤٥ حيث تقول : «تتسلل رؤية المرأة إلى مقولة يحاول البنيان الروائى إثباتها . وفى هذه الرواية يختزل الكاتب الوجود الحى للمرأة إلى بعد أحادى واحد ، وهو الجنس ، أو بالأحرى عضو الأنوثة» .

(٤) ، (٥) العيب ص ٣ .

استحالة أن يعتقد أحدهم أو يهضم أن تستطيع فتاة أو سيّدة ما في الوجود أن تجد لها مكانا داخل هذه المؤسسة الرجالية الخالصة . . تماما كما لا تستطيع أن تتصور أن توجد فتاة أو سيدة في جناح الملابس الداخلية الخاصّة بالرجال ..»[١] وهذه الفكرة فكرة دور الرجل في العمل وهامشية دور المرأة أو حداثته بمعنى أصح يلعب دورًا في حياة العاملات من النساء في المصلحة . ويمضي في بيان وتوضيح غرابة خبر تعيين فتيات في مصلحة التراخيص[٢] .

قلنا إن رواية العيب رواية دراميّة تقوم على الصراع ، وأن ذلك الصراع ينتهي نهاية محتومة بسقوط سناء بعد ارتشائها .

ويلاحظ قارئ الرواية أن الحدث في قسمها الثاني يصاب بالبطء وأن شخصية الكاتب تظهر ظهورًا واضحا للتعليل والتحليل والتبرير ما مما يصيب القارىء بالملل، لأن الرواية يراد لها أن تؤدي مضمون الفكرة التي يعبر ذلك الصراع عنها والتي تكمن فيها فكرة الرواية والتي تتمثل – في رأيي – في أن الظروف الفاسدة المحيطة بالإنسان تحتم ترديه في مفاسدها ، بل قد تتدنى به إلى ما هو أبعد من المفاسد المادية ، كما أن الكاتب ينبه من طرف خفي إلى إصلاح حال الموظفين في الحكومة الذين تدفعهم ظروف الحياة إلى الارتشاء أو تدفع كثرتهم إلى ذلك ، فيرتشون وقد يسرقون ، – دون أن تكون تلك الأفعال في الغالب صادرة عن مفاسد شخصيّة متأصلة ، بل هي في الواقع نابعة من رغبتهم في تحقيق الحد الأدنى من الحياة الكريمة لهم ولأسرهم، فهم طيبون في جوهرهم وإن بدوا غير ذلك ، بل إنهم يعيشون ثنائية قاسيّة للتوفيق بين قيمهم المتوارثة والمكتسبة عن الخلق والفضيلة والرذيلة ، وبين ما هم مضطرون إليه لخوض غمار الحياة .

وإذا كانت سناء قد انهارت قيمها بعد حرمان أخيها من الامتحان ، فإن الجندي والباشكاتب والآخرون يعيشون نفس المحنة . فالكل في الهم شرق كما يقال : وكأن الكاتب يرى أن حماية القيم الأخلاقية رهن بتحقيق الحياة الكريمة للمواطن . فقد تكون الثقافة

---

(١) المصدر نفسه ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤ ، ٥ ، ٦ .

دافعًا للاعتزاز بالنفس وبالكرامة ، ولكنها لا تلبث أن تصبح عديمة الجدوى ، إذا لم تحقق المستوى الطيب للعيش لصاحبها .

ويبدو لى أن هذه الرواية القصيرة كانت تصلح مسرحيّة من فصل واحد أو فصلين ، لأنّه يبدو أن الكاتب بعد فترة قصيرة خمدت الأحداث ، ولم يستطع أن يصل إلى حل نابع منها ومن ثم لجأ إلى التعليل والتحليل لسد الفجوة الكائنة بين حركة الأحداث وتدفقها وبين بطئها وركودها . ومن هنا ترى الدكتورة لطيفة الزيات أن التعميم الذى توصل إليه يوسف إدريس بروايته ليس تعميما صحيحا : تقول : «ويوسف إدريس يجيد رصد الظاهرة كما لا يجيد هذا الرصد إلا عدد من الكتاب العرب ، وموطن ضعفه يكمن فى الناحية النظريّة ، ومن ثم فهو يفشل أحيانا فى تحديد ماهيّة الظاهرة التى تستوقفه وتصيبه بالحيرة فلا يصل أبدًا إلى التعميم الصحيح لها ، وبالتالى إلى التحديد السليم لماهيتها ، وهذا على وجه الدقة ، ما يحدث فى رواية العيب»[١] .

ولقد سبق أن أشرت إلى ما ذكره يوسف إدريس من خلاف بين طبيعة المرأة والرجل أو ظروف كل منهما ، وكيف أن الأخلاق عند المرأة تمثل كلا متكاملا إذا انهار منه جانب انهارت الجوانب الأخرى ضرورة فى حين أن الرجل ليس كذلك[٢] . وتشير إلى هذا الدكتورة لطيفة الزيات[٣] ولكنها تعارض ما قد يبدو لقارىء الرواية للوهلة الأولى من اختلاف طبيعة الرجل والمرأة من حيث أحادية تكوينه عند المرأة وثنائيته عند الرجل ، ولكنه يختزل وجود المرأة إلى شىء واحد هو الجنس : .. وسر تكامل المرأة ، وفقا ليوسف إدريس يكمن فى أن كيانها يتحلق حول أنوثتها ، أو بصراحة حول عضوها الجنسى ، وهذا العضو يشكل النواة الصلبة التى تتحلق حولها شخصية المرأة . وهذا العضو هو مصدر كل قيمة من قيم المرأة ومردها ، روحيّة كانت هذه القيمة أو أخلاقية أو سلوكية . ولأن الوضع كذلك فسقوط سناء لابد وأن يصل إلى المحور والمرد»[٤] .

ولعل ما تصاب به الرواية من ضعف فى قسمها الثانى وفى نهايتها راجع إلى الفكرة السابقة التى بنيت عليها الرواية ، وهو خلاف طبيعة كل من الرجل والمرأة فى مواجهة

---

(١) مجلة أدب ونقد مرجع سابق ص ٤٦ .
(٢) انظر د. عبد الحميد القط . يوسف إدريس والفن القصصى .
(٣) انظر بالتفصيل المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) المرجع نفسه ص ٤٨ .

مصاعب الحياة ومشاكلها ، فليست المرأة جنسا فحسب ، ولكنها كائن حيّ يتجاوب مع الظروف كما يتجاوب غيره ، أو قد يخالف غيره فى ذلك بدافع من خلق نبيل ، أو مبادئ سامية أو ما شابه ذلك . ولكن جعل المرأة نسيج وحدها فى هذا الأمر شيء لا يمكن الاقتناع به تقول الدكتورة لطيفة الزيات :

«ويصر يوسف إدريس على تفسير كل حركة من حركات سناء هذا التفسير الجنسى . ولا يملك الإنسان سوى أن يعجب كيف استطاع يوسف إدريس أن يلوى الحقائق إلى هذا الحد ، وأن يمسك بفضيلة عظيمة من فضائل المرأة التى لم تتمرس بعد على اللعبة القذرة وأن يحيلها إلى رذيلة ، وكيف استطاع أن يختزل «تكامل إنسانى» عظيم إلى مجرد بعد أحادي ، حارما عمله الفنى بهذا التفسير الغريب لمسلك سناء المرأة من البعد التراجيدى ... إلخ»[1] .

إن هذه الرواية كان يمكن أن تصبح شيئا آخر لو أن نهايتها كانت قد اتخذت شكلا آخر دراميا ، بعيدًا عن الاستسلام الفج من سناء لرغبة الجندى . وبذلك الشكل الرخيص الذى تعرضه الرواية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٩ .

obeikandl.com